الفصل الثالث

دوافع الاستشراق

من خلال دراسة أعمال المستشرقين وما حققوه من أهداف يمكن أن نحدد دوافعهم. لقد كتب الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه أجنحة المكر الثلاثة ملخصاً لدوافع الاستشراق وهي تتمثل فيما يلي:

١- الدافع الديني:

لقد بدأ في حضن الكنيسة وبدأ بالرهبان ثم استمر ومعظم المستشرقين من رجال الكهنوت، وهؤلاء يهمهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه ويحرفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار وأن المسلمين قوم همج لصوص وسفاكو دماء يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحديث بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى ثم الحروب الصليبية ثم الفتوحات العثمانية بعد في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام وكره لأهله فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية وحين قامت جمعيات التبشير ووضعت من أهدافها تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية أو إلى اللادينية والإلحاد الكامل

كانت دوافع الاستشراق لدى المستشرقين وأنصارهم ومؤيديهم هي دوافع التبشير نفسها، وتتلخص بسلخ المسلمين عن دينهم ومحاولة إدخالهم في النصرانية واتخذوا لتحقيق ذلك وسائل منها تنفير المسلمين عن دينهم وحملهم على كراهيته بتشويهه والتشكيك في أسسه وتوجيه المطاعن له، وبفعل نظير ذلك في التاريخ الإسلامي وحضارة المسلمين وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث ومنها تزيين ما في المسيحية من تعاليم وأحكام واستدراج المسلمين للأخذ بالحضارة المادية الحديثة وما فيها من مغريات للنفوس وأسرات للشهوات وباهرات للنظر.

٢- الدافع الإستعماري:

لم ييأس الصليبيون بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية من العودة إلى احتلال بلاد العرب وسائر بلاد المسلمين، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شئونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ولغات وتاريخ وغير ذلك مما يتعلق بها من جغرافية وسكان بغية أن يتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها ولم تم لهم الاستيلاء الفكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق أضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم وكان لهم في ذلك وسائل كثيرة، تسللوا بها إلى نفوس أبناء المسلمين وأفكارهم منها التشكيك بفائدة ما في أيدي المسلمين من تراث وما عندهم من عقيدة وقيم إنسانية والغرض من ذلك أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ويرتموا في أحضان الغرب يستمدون منه المقاييس الأخلاقية والمبادئ والعقائد والعادات والتقاليد وأنواع السلوك، ليتم للغرب بذلك إخضاع المسلمين لحضارته وثقافته إخضاعاً كاملاً. ومنها إحياء مفاهيم جديدة أو إحياء مفاهيم جاهلية ماتت منذ تمكن الإسلام في قلوب المسلمين كالقوميات الفرعونية والفنيقية والآشورية والعربية والكردية والتركية والفارسية ونحو ذلك ليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الإسلامية الواحدة، التي تجمعها رابطة وحدة الدين الذي يهيمن على جميع مشاعر الإنسان الداخلية وسلوكه الظاهر.

٣- الدافع الاقتصادي:

من الدوافع التي حرضت كثير من الغربيين على الدراسات الاستشراقية رغبتهم يغزو البلاد الإسلامية غزواً اقتصادياً يهدفون فيه إلى الاستيلاء على الأسواق التجارية والمؤسسات المالية المختلفة والاستيلاء على الثروات الأرضية، واستغلال الموارد الطبيعية والحصول عليها بأبخس الأثمان وإماتت الصناعات المحلية القديمة، لتكون بلاد المسلمين بلاد استهلاك لما تصدره المصانع الآلية الغربية.

٤- الدافع السياسي:

قبل الإستعمار وبعد تحرر البلاد الإسلامية منه رأت الدوائر الإستعمارية حاجتها السياسية تقتضي بأن يكون لها في قنصلياتها وسفاراتها من لديهم زاد جيد من الدراسات الاستشراقية ليقوم لهم هؤلاء بمهمات سياسية متعددة في بلاد المسلمين، منها الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة للتعرف على أفكارهم وواقع بلادهم وبث الاتجاهات السياسية التي تريدها الدول الإستعمارية فيهم، ومنها الاتصال بعملائهم وأجرائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية في البلاد. وكم بث هؤلاء في بلاد المسلمين من أفكار وكم دسوا من دسائس وكم استخدموا أجراء لدس وإثارة الفتن وإقامة ثورات وانقلابات عسكرية إلى غير ذلك من أعمال سياسية عادت على المسلمين والإسلام بأضرار فادحة.

٥- الدافع العلمي:

من المستشرقين نفر قليل جداً أقبلوا على الدراسات الاستشراقية بدافع من حب العلم والإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في الإسلام والتراث الإسلامي، لأنهم لم يكونوا يتعمدون بتفكير واع أن يدسوا أو يحرفوا فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل منهم من اهتدى بدراسته للإسلام وآمن برسالته. على أن هؤلاء لا يجدون إلا حين يكون لهم من

الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى، لا تلقي رواجاً لا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة ولا عند الباحثين لذلك فهي لا تدر عليهم مكاسب ومغانم وطبيعي أن يندر وجود هذه الفئة في أوساط الحركة الاستشراقية[١].

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، الطبعة الثانية (دمشق: دار القلم، ١٩٨٠م) ص٩١-٩٤.